الأَديبْ و المُفكِّرْ الرَّاحِل
رَمضان عَبْدِ الرَّحْمن لاَوَنْد

برنـامج هـل تعرفـني؟

معروف الرصافي

مؤثرات موسيقية.....

- في مدينة بغداد ولدت. وليس بالقليل أن يولد الإنسان في مدينة السلام. كان مولدي عام 1875م في أسرة فقيرة. أمّا أبي فقد كان طويل الغيبة قليل الأوبة. وكيف لجندي من جنود الأرياف فقير أن يعود إلى منزله القائم في العاصمة؟ لكنّه رحمه الله كان يجد من تقوى نفسه وتديّنه القوي وإكثاره من تلاوة القرآن الكريم وإحيائه للصلاة، العزاء والسلوى.. ومن أجل غيباته لم أعرفه معرفة جيدة فاشتدّت صلتي بأمي وجدّي لأمي.

وإن أنسَ لا أنسى الضرب الموجع الذي كنت أحتمله من أبي حين تثور ثائرته أو يزلق لسان أمي فتشكو إليه بعض "شيطناتي" وعبثي الطفولي. وما يدريني لعله بدافع لاشعوري عميق كان يصبّ غضبه على الدهر في شخصي. وقد غفرت له هذا كلّه. أوَلم يكن شِعري في أكثره مشاركة وجدانية منّي لفئات البائسين والمحرومين؟

ضربة موسيقية.....

- أتيحت لي الفرصة الذهبية التي يتمنّاها كلّ فتى من فتيان العصر. لقد فتحت لي المدرسة العسكرية أبوابها بعد أن حفظت القرآن الكريم وتنقّلت من كتاب إلى كتاب أعلى. ومع ذلك فلم أحسن الإفادة من دروس المدرسة العسكرية التي كانت تلقى باللغة التركية، ولم أكن أعرف من هذه اللغة غير القليل. ولكنّني صبرت حتى نفد صبري حين بلغت السنة الثالثة. فسقطت وسقط مع سقوطي كلّ أمل لي في النجاح. فاخترت العافية نافراً من المدرسة لأجد أمامي مدرسة أستاذي محمود شكري الألوسي صاحب "بلوغ الأرب"، فما لبثت حتى اندمجت في دروسها أعبّ من معارف الدين والعربية ما شاءت لي ذاكرتي أن أعبّ. وبقيت كذلك اثنتي عشرة سنة ألازم أستاذ الجيل آنذاك حتى أتقنتُ علوم العربية والفقه والأصول والمنطق..

تم تحميل هذا الملف من مكتبة الأديب الراحل رمضان عبدالرحمن لاوند (سيّد المنابر) www.RamadanLawand.com
مع الاحتفاظ بكامل حقوق الطبع و الملكية الفكرية ،لمزيد من المعلومات يرجى مراسلتنا :info@RamadanLawand.com

- ضربة موسيقية.....
- وإذا كنت قد غادرت المدرسة فقد بقي صاحبها شكري الينبوع الذي أعود إليه كلّما وجدتُ حاجة للاستعانة به. وكم كانت حاجاتي إليه كثيرة. وما زلت أفرد له من حياتي أطرافاً وأخصّه من بين خلصائي بأوفر الودّ حتى أدركَته المنيّة فرثيته بقصيدتين جاء في واحدة منهما:
- لأشكرنّك يا شكري مدى عمري وأبكِينّكَ أبكاراً وآصـــالا
- فأنت أنت الذي لقّنتني حِكَماً بها اكتَسيتُ من الآدابِ سِربالا

ضربة موسيقية....

- كنتُ فقيراً من بيت فقير. وقد رافقني الفقر في كلّ مراحل الطلب فما ملّني وما وجد من يشغل به نفسه عنّي. ولكنّني لم أذلّ له ولم أضعف أمام شهوات النفس. فإذا شعرت بالحرج لرقّة حالي اخترتُ العزلة عن الناس وأخضعتُ شهواتي حتى لا أتعوّد ما لا أستطيع اعتياده.. قنعتُ بالقليل وترفّعتُ عن المطاعم الخبيثة واحتفظتُ بكبريائي. وقلت معبّراً عن هذا المعنى:
- وأقنعُ بالقوتِ الزهيد لِطيبه حذارِ وقوعي في خَبيثِ المطاعمِ
- وأتركُ ما قد تشتهي النفسُ نيلَه لما تشتهيه قلّة في دراهـمي

ثمّ لم أكد أنتهي من عهد الطلب والدراسة حتى رحتُ أبحثُ عن مورد رزق لي فاحترفتُ التعليم وتنقّلتُ في مدارس مختلفة لا أكاد أجد في حرفتي هذه غير الأقلّ من القليل.. وما يدريني لعلّ القدر قد أراد لي مثل هذا الكدر الذي تتكامل به أداة الشعر فترهف النفس ويزكو الخيال وينضج العقل.

ضربة موسيقية.....

- وجاء عام الدستور وجاءت معه دعوة لتركيا وجّهها إليّ صاحب جريدة "إقدام" لمساعدته على تحرير طبعتها العربية. وكم كانت فرحتي عظيمة حين وصلت هذه الدعوة فبادرتُ فوراً إلى السفر تاركاً ورائي أمّاً مزّقها الفراق. فإذا بلغتُ دمشق تذكرتها فكان مما قلتُ فيها:

يا أمّ لا تخشي فإنّ الله يا أمي مجيري
ودعي البكاء فإنّ قلبي من بكائِك في سعير

ثمّ وصلتُ الآستانة ورجعتُ منها بخفّي حنين! وما حيلتي! أنا هكذا. لقد كُتِب عليّ أن أشقى كما لم يشقَ أحد من قبل. وقلتُ في نفسي: هذا هو قدرك يا نفس فلا تموتي حسرة على الدنيا. ولو قد حاولت لما غيّرت مصيرك أبداً..

ضربة موسيقية...

- ويمضي شهران ظننتُ فيهما أنّ أبواب الرزق قد أغلِقَت دوني بصورة نهائية. وفجأة تصِلُني من الآستانة دعوة أخرى لأدرس اللغة العربية في المدرسة الملكية الهاشمية ولأحرّر في مجلة الإرشاد. فسافرتُ إليها وعملتُ فيها سنوات ثمّ عيّنتُ نائباً عن لواء المنتفق وأنا في تركيا. فإذا جاءت الحرب العالمية الأولى عهد إليّ تدريس الخطابة في مدرسة "الواعظين".. وبقيتُ حيث كنتُ حتى انتهت الحرب وأعلنت الهدنة. فعزمت على العودة إلى العراق. لكنّ الرياح جرت بما لا أحبّ فمكثت في دمشق سبعة أشهر ثمّ توجّهت إلى القدس لأدرس آداب اللغة في دار المعلمين..
- وفي عام 1921 استدعتني الحكومة العراقية وعيّنتني نائباً لرئيس لجنة التأليف والترجمة والنشر. ثمّ تلاحقت أسفاري والعودة منها إلى العراق وعيّنت مفتشاً للغة العربية عام 1924 ثمّ مدرّساً بدار المعلّمين العالية، ثمّ كانت الاستقالة من العمل نهائياً وقد قرّرت الإخلاد إلى السكينة والهدوء. ولكنّ الظروف فرضت عليّ أن أكون عضواً في المجلس النيابي في دورتين متعاقبتين ظهرت عليّ بعدها ثمرة التعب في السنين الطوال، فاعتزلتُ السياسة سبعة أعوام أدركتني في نهايتها المنيّة ففارقت الدنيا في آذار من عام 1945م.
- ضربة موسيقيـــة..
- هذه ترجمة حياتي. ولعلّي قد أطلتُ عليكم. ولكن ما حيلتي إذا كانت حياة أمثالي من الناس حافلة بالأحداث غنيّة بالصور. هو الشقاء يعنّت صاحبه ويتعبه ولكنّه يلذّ للمراقب الذي يشهد معالمه عن بعد. فلا أقلّ من أن اشعر بالمتعة التي تأتيني حين أجد الرغبة عند الآخرين في قراءة قصص المآسي وحكايات البائسين. على أنّ المأساة في حياتي قد علّمتني أشياء كثيرة وكشفت لي من خفايا النفوس ما ينضج به العقل وتتعرّى به النفس من أكاذيبها فإذا بها صافية صفاء البلّور..
- وقد يكون من دواعي النضج والتقدّم هو الحوار الذي تتفجّر فيه التناقضات والخلافات بين شخصين أو اكثر. فإذا كنت أحمد للدنيا شيئاً فهو أنّها قد وضعت في طريق حياتي إنساناً كبيراً جاذبته أطراف الشهرة وتنازعت معه في دنيا الأدب والفكر حتى كدنا نكون في العراق، أنا وهو، شاغل الناس الأكبر،

فلا يمضي يوم دون أن تسجّل الصحافة اليومية أو الدورية شيئاً يتّصل بخلافاتنا وأخبارنا وتلاقينا أو تباعدنا. لعلكم عرفتم هذا الإنسان. إنّه الشاعر المجيد، حامل رسالة التجديد، جميل صدقي الزهاوي.

- ضربة موسيقية.....
- هل عرفتموني الآن من خلال زميلي الزهاوي؟ لا يهمّ ذلك. المهم أنّني كنت وإيّاه كفرَسي رهان، فإذا جاء مجلّيا كنت مصلّيا. وقد يكون العكس. فكم من مرة تعاقبنا على المنبر الواحد. وكم من مرة نازعني أو نازعته تصفيق الجمهور وإعجابه. وكم من مرّة عقدت الاجتماعات ونظّمت المجالس لإزالة ما بيني وبينه من الجفوة التي يصنعها التنافس في الشعر. وبقينا كذلك في مدّ وجزر حتى جاءت المنيّة زميلي فاختطفته من بين الأحياء وكُتِب عليّ أن أودّعه فوق لحده فكأنّما كنت أودّع دنياي وأروّض نفسي على استقبال الموت الذي كنتُ أحسّ دبيبه. قلتُ في ذلك الموقف:

- أيّها الفيلسوف قد عشت مضنى مثل ميّت وصرت بالموت حيّا
- ما حياة العظيم إلا خلـود بعد موتٍ يكـون للجسـم طيّا
- سوف يبقى بين الورى لك ذكر ناطق بالبقاء لم يخشَ شيّا
- أنت فرد في الفضل حياً وميتا خرت في الحالتين ذكراً عليّا
- سوف أبكي عليك شجواً وأنّي كنتُ أبكيكَ في الحياة شجيّا

ضربة موسيقية.....

- كنتُ أعشق الحرية والأحرار. لا أطيق البقاء على جنب واحد. أبحث عن الجديد. لأنّ الجديد هو الذي يحرّرني من الرتابة في دجى الليل وضحى النهار.

تعوّدت ألّا أستنيم إلى المنى وألّا أرى إلا بهيئة ثائـــر

أحببتُ أرضي والتراب الذي أسير فوقه. ولكنّني أحببتُ الناس أكثر من حبّي للأرض. وأحببتُ من الناس حباً خاصاً أولئك الذين سحقهم البؤس وكسر قلوبهم شظف العيش. فإذا رأيتُ يتيماً أو فقيرة سائلة أو إنساناً مغلوباً على أمره لا تلبث دموعي أن تسيل ولا يلبث قلمي أن يسجّل تأمّلات نفسي.

ضربة موسيقية.....

- وهل أصدّق تعبيراً عن الحرية من أن احمل على الظلم والظالمين وأتحدّى الطغاة والطغيان والنفاق والمنافقين؟

- من أجل ذلك رفضت السكوت عن ظلم السلطان عبد الحميد وحرّضت قومي على قول الصدق والتعلّق بأهداب الصراحة وتحديث المستعمر البريطاني فقلتُ من قصيدتي "إيقاظ الرقود"..

سكنّا من جهالتنا بقاعا يجور بها المؤمّر ما استطاعا

فكدنا أن نموت بها ارتياعا وهبنا أمة هلكت ضيـــاعا

تولّى أمرها عبد الحميد

وقلت أيضاً:

أحبّ صراحتي قولاً وفعلاً وأكره أن أميل إلى الريـــاء

ضربة موسيقية....

- وكم كانت ثورتي شديدة حين تقدّمت حكومة الآستانة من المجلس النيابي بمشروع قانون تخصّص بموجبه الرواتب العالية لأصهار البيت العثماني المالك. فقلت تعقيباً على هذا القانون:

هم يعدّون بالمئات ذكورا وإناثاً لهم تصوّر مشـــالة

تركوا السعي والتكسّب في الدنيا وعاشوا على الرعيّة عالـــة

يتجلّى النعيم فيهم فتبكـي أعين السعي من نعيم البطالـة

يأكلون اللباب من كدّ قـوم أعوزتهم سخينة من نخالـــة

وإذا هم جروا الجرائر يومـاً فعلينا تكون فيهـا الحمالـــة

وإذا ما استهلّ فيهم وليد فعلينا رضاعـه والكفالـــة

حمّلونا من عيشهم كلّ عبء ثمّ زادوا أصهارهم والكـلالـة

فكفينا أصهارهم مؤنـــة العيش فكانوا ضغثاً على إبـالـة

تلك والله حالة يقشعر الحقّ منها وتشمـئزّ العـــــدالـــة

وهي في الملّة الحنيفية البيضاء كفر بربّنـا ذي الجلالـــــة

ضربة موسيقيـة...

- كنت أوثر الحديث عن فنون شعري كلّها. ولكن ما كلّ ما يتمنّى المرء يدركه. لكنّني قبل أن أنهي ترجمتي لحياتي والحديث عن شعري يهمّني أن أقول لكم أنّ تمرّدي على سلطان العثمانيين لم يكن يعني سكوتي عن عدوان الغرباء على هذا السلطان. لقد كنتُ أرفض في هذا السلطان جهله وظلمه وطغيانه. حتى إذا أتاه الخطر من الخارج لا ألبث حتى أنافح عنه بكلّ ما أملك من قوة. فأنا لا أقاومه لحساب أيّ فريق غير فريق الحرية والعلم والتقدّم..
- من أجل ذلك ثارت ثائرتي حين جاء العدو منقضاً على أرض الإسلام أو العروبة واخترت الوقوف إلى جانب السلطان في الحرب العدوانية المزدوجة التي أعلنت عليه في البلقان وطرابلس الغرب وحين بدت بوادر السياسة الأجنبية الرامية إلى اقتسام ممتلكات الدولة التركية التي كانت تسمى "الرجل المريض"..
- وكم امتلأت نفسي بالفخر وهزّتني الأريحية والنخوة حين سمعت أنباء المقاتلين من أبناء برقة وطرابلس يذودون بالأرواح والأموال عن بلادهم فقلت لأهل برقة:

يعزّ علينا أهل برقة أنّكم تدور عليكم بالدماء رحى الحرب

ويا أهل بنغازي سلام فقد قضت صوارمكم حق المواطن في الذب

وكم كانت المأساة مضحكة مبكية حين قيل لنا أنّ معاهدة عقدت بين العراق وجلاديه من المستعمرين. فقد وجدت في هذه المعاهدة شروطاً مفروضة من قوى على ضعيف ومن ذئب على حمل. فرحت أحرّض قومي على النهوض وأدفعهم إلى الكفاح وأهزّ نفوسهم لطلب العلم الذي هو أمضى سلاح في يد المغلوب على أمره. فقلت في هذا المعنى:

أطلب وكاد يعييني الكـلام ملاماً دون وقصة الحســام

فما انتبهوا ولا نفع المـلام كأنّ القوم أطفـال نيـــام

تهزّ من الجهالة في مهود

ضربة موسيقية.....

- وبعد فهل قلت كلّ ما يمكن أن أقوله للتعريف بنفسي؟ وهل عرفتموني حقاً من بين الوجوه الأدبية التي ظهرت في النصف الأول من هذا القرن العشريني؟ إذا كنتم لم تعرفوني جميعاً فإنّه يسرّني أن أقول لكم من أنا.. أنا معروف الرصافي شاعر من العراق عشت ومتّ من أجل حرية العرب ومجد الإسلام..